**نظرية النظم عند الجرجاني**

**مفهوم النّحوُ عند الإمامِ الجرجانيّ:**

يذهب الجرجانيّ إلى توضيح الاختلاف بين معرفتنا لقواعد اللّغة وأصولها وبين الكشف عن المعاني الخفيّة التي تكمن وراء هذه القواعد والأصول، لأنّه " لا تسهل معرفتنا لكلّ من أحاط بقواعد اللّغة ونحوها وصرفها، وإنّما يسهُلُ لمن يراها رؤيةً عميقةً لا تقف عند حدود المنطق والنّحو، فليست اللّغة مجرّد مصطلحاتٍ أو قوانين يخضع لها الفكر، وإنّما هي رموزٌ تتجسّد فيها حالة المتكلّم الباطنة بكلّ ما فيها من إحساسٍ وشعورٍ وفنّ؛ ولو صحّ كون اللّغة مجرّد علاماتٍ اصطلاحيّةٍ لوقفت عند حدود نقل الفكر وحده، ولما كان هناك داع لأن تعرض المزية في الكلام ويفضل بعضًا على أساس تدرجّه في سلّم القيم، ولكان ما أتى به القرآن في مقدور البشر ما دام الأمر لا يتعدّى مجرّد الفكر وحده."[[1]](#footnote-2)

والنّحو عند الجرجاني مقياسٌ به يستقيم الكلام، وبالاعتماد عليه يكشف النّقاب عن خفيّ الدّلالات ومختلف المقاصد، وقد ذهب في ذلك إلى عدم تعلّق الفكر بمعاني الكلم مجرّدة من معاني النّحو وتوخّيها، إذ يقول: " ومّما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر، أنّه لا يُتصوَّرُ أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا ومجرّدةً من معاني النّحو، فلا يقوم في وهمٍ ولا يصحّ في عقلٍ أن يتفكّر متفكّرٌ في معنى فعلٍ من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكّر في معنى اسمٍ من غير أن يريد إعمال فعلٍ فيه وجعله فاعلاً له أو مفعولاً... وإن أردتَ أن ترى ذلك عيانًا، فاعمد أيّ كلامٍ شئتَ وأزل أجزاءهُ عن مواضعها وضعًا يمتنعُ معهُ دخولُ شيئٍ من معاني النّحو فيه، فقل في ( قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ): من نبك قفا حبيب ذكرى منزل؛ ثمّ انظر، هل يتعلّق منك فكرٌ بمعنى كلمةٍ منها؟"[[2]](#footnote-3)  
وهو يسوق أمثلةً كثيرة يبيّن بها ويثبتُ فكرته، منها: " وإن أردتَ مثالاً فخُذ بيتَ شعر:

كأنّ مثار النّقعِ فوق رؤوسنا \*\*\* وأسيافنا ليلٌ تهاوى مراكبُه

وانظر هل يُتَصوّر أن يكون بشّار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفرادًا عاريةً من معاني النّحو الّتي تراها فيه، وأن يكون قد وقع ( كأنّ ) في نفسه من غير أن يكون أراد إضافة الأوّل إلى الثّاني، وفكّر في ( فوق رؤوسنا ) من غير أن يكون قد أرادَ أن يُضِف  
 ( فوق ) إلى الرّؤوس، وفي ( الأسياف ) من غير أن يكونَ أرادَ عطفها بالواو على ( مثار )، وفي ( الواو ) من دون أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكّر في ( اللّيل ) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرًا لـ (كأنّ )، وفي ( تهاوى كواكبه ) من دون أن يجعل  
 ( تهاوى ) فعلاً لـ ( الكواكب )، ثمّ يجعل الجملة صفةً للّيل ليتمّ الّذي أراد من التّشبيه؟ ألم تخطر هذه الأشياء بباله إلاّ مرادًا فيها هذه الأحكام والمعاني الّتي تراها فيها؟ وليت شعري كيف يُتصوّرُ وقوعٌ منك إلى معنى كلمةٍ من دون أن تريدَ تعليقَها بمعنى كلمةٍ أخرى. ومعنى القصدِ إلى معاني الكلم أن تُعلِمَ السّامعَ بها شيئًا لا يعلمه؟ ومعلومٌ أنّكَ أيّها المتكلّمُ لست تقصدُ أن تعلمَ السّامع معاني الكلم المرادة الّتي تكلّمه بها، فلا تقول: ( خرج زيدٌ ) لتعلمه معنى خرج في اللّغة ومعنى زيد؛ كيف ومحالٌ أن تكلّمهُ بألفاظٍ لا يعرفُ هو معانيها كما تعرف؟ ولهذا لم يكن الفعلُ وحدهُ من دون الاسمِ، ولا الاسمُ وحدَهُ من دون اسم آخر أو فعلٍ كلاما، وكنت قد قلت: ( خرجَ ) ولم تأتِ باسمٍ ولا قدّرت فيه ضميرَ الشّيئ، أو قلت: ( زيدٌ )، ولم تأتِ بفعلٍ ولا اسمٍ آخر ولم تضمره في نفسكَ، كان ذلك صوتًا تصوّته سواءً فاعرفه."[[3]](#footnote-4)

إنَّ الطلع على ملاحظات الجرجانيّ في النّحو، يجد نفسَه أمام اتّجاه مختلفٍ عن المعتاد في فهم الابداع الكلاميّ وتفسيره، فالنّحو ليس مجرّد قواعد منطقيّة جدليّة، بل هو في حدّ ذاته إبداعٌ وضربٌ من ضروبِ الفنّ البلاغيّ الرّفيع، ذلك أنّ فهمَ الجرجانيّ وتصوّره للنّحو كانا متطوّرين في عصره، إذ أحلاّ اللّغة محلّها الّذي بها يليق، فالنّحو عنده ليس علمًا يبحثُ في ضبط أواخر الكلماتِ، ولا هو مجموعةٌ من المصطلحات والقواعد والقوانين الجافّة، إنّما هو ذلك العلم الكاشف لنا عن المعاني، والمتّصل اتّصالاً لا فصل فيه بالبلاغة وفنّ القول الفصيح، وهو وسيلةٌ من وسائل التّصويرِ والصّياغَة، ومقياسٌ يهتدى به في البراعة؛ أمّا المعاني الّتي يكشفها النّحوُ فهي الألوان النّفسيةُ الّتي ندركُها من علاقات الكلام ببعضه، ومن استخدام المبدع اللّغة استخدامًا يخلق من ارتباطات الألفاظ نسيجًا حيّا متشعّبًا من الصّور والمشاعر ولخيال.[[4]](#footnote-5)

**نظريّة النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ:**

أفاد الإمام عبد القاهر الجرجانيّ كثيرا ممّا كتبه علماء النّحو واللّغة في تكوين وبناء فكرة النّظم، إذ تدور فكرة النّظم لديه حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات، وسمّى هذه العلاقات " النّظم "، وهو ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسببٍ من بعض. والكلم ثلاث: اسمٌ، وفعلٌ، وحرفٌ، وللتعلّق فيما بينها طرقٌ معلومةٌ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسمٍ باسم، وتعلّق اسمٍ بفعل، وتعلّق حرفٍ بهما.والكلام لا يكون من جزءٍ واحدٍ، ولا بدّ لتحقّقه من وجود مسندٍ ومسندٍ إليه، وكذلك السّبيل في كلّ الحروف رأيته يدخل على كان وأخواتها.  
  
  
ونوجز هنا أهمّ النّقاط الّتي تتكوّن منها نظريّة النّظم الجرجانيّة وفق ما جاءت في كتابه "دلائل الإعجاز ":  
أ. المعاني وعاؤها الألفاظُ، والثّانية وظيفتها خدمة الأولى.  
ب. العقلُ هو الّذي يحكم التقاء معاني الكلمات، فتنتظم وفقًا لما يقتضيه.  
ت. لا بدّ في النّظم أن تُتَوّخى معاني النّحو، إذ يجب أن يوضع الكلامُ الوضعَ الّذي يقتضيه علم النّحو.  
ث. ليس المهمّ معرفة عبارات النّحو نفسها، إنّما المهمّ معرفة مدلول تلك العبارات.  
ج. الاستعارةُ وسائر ضروبِ المَجازِ من مُقتَضياتِ النّظمِ.  
ح. لا نظمَ ولا ترتيبَ للكلِمِ حتّى يتعلّق بعضها ببعض، والتّعلّق هو الأساليبُ والأدواتُ النّحويّة.  
خ. ليس المقصودُ بالنّظمِ ضمّ الشّيئ إلى الشّيئ كيفما اتّفق، بل لا بُدّ فيه من تتبّعِ آثار المعاني واعتبار الأجزاء مع بعضها.  
د. ليسَ النّظمُ إلاّ أن تضع كلامَكَ الوضعَ الّذي يقتضيه علم النّحوِ، أي أن تتوخّى فيه معاني النّحو.  
**علاقة النّظم بالنّحو عند الجرجاني**

يمثل علم "النحو" القواعد اللغوية للتعبير الصحيح، ولكن التعبير النحوي الصحيح لا يكفي لأن يكون التعبير صحيحا أو جيدا. فالنحو ليس إلا شرطا للتعبير الجيد أو التعبير الصحيح عن غرض المتكلم. وهذا الأخير، أي التعبير الجيد، لا يتأتى إلا من خلال إجادة ترتيب أو "نظم" الألفاظ. فالاستخدام الصحيح للغة هو استخدام الألفاظ بحسب معانيها التي تعارف عليها واضع اللغة، وبحسب قواعد النحو الخاصة باللغة، أما التعبير الصحيح فينتج من أسلوب "نظم" الألفاظ. هذا هو المفهوم الأساسي للشيخ عبد القاهر "للنظم".

وهو يوضح ذلك في النص التالي: "واعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه"علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها "[[5]](#footnote-6)، وفي نفس الوقت

"واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك"[[6]](#footnote-7).

1. **التفرقة بين النظم والمجاز:**

وعلم "النظم" في هذه الحالة هو العلم بالكيفية وبالقواعد التي تحكم تعلق الكلم ببعضها البعض والتي تحكم أسباب هذه العلاقات، والتي تجعل "النظم" نظما صحيحا أو جيدا. ويتضمن ذلك أن تقدير جودة النظم من عدمه لا يرتبط بالشعور الذاتي أو الإحساس وإنما بأسباب محددة خاصة بعلاقات الكلم، أي بأسباب ورود كلمة معينة في مكان معين وليس في مكان آخر في النص.

فالنظم باعتباره ترتيبا للألفاظ لأسباب محددة وللتعبير عن معان محددة، هو أمر مختلف عن الخيال والتعبير المجازي. فالمجاز عند الشيخ هو علاقات بين المعاني، فالنظم يفيد معنى معين، ولكن هذا المعنى يمكن أن يكون مجازيا، أي على غير الحقيقة. أما المعنى المقصود "الحقيقي" فيكون ناتجا عن نوع من العلاقة "المعنوية" بين المعنى الناتج عن نظم الألفاظ وبين المعنى المقصود. ويحرص الشيخ في مقدمته لكتاب "دلائل الإعجاز" على التفرقة بين النظم والمجاز في اللغة، وبيان أن ميزة المجاز تتركز لا في الألفاظ المجازية ذاتها وإنما في طبيعة العلاقة "المعنوية" التي يثبتها النظم. فالكناية تجعل المعنى آكد وأشد، والتشبيه يؤدي إلى قوة إثبات الصفة..وهكذا. ويعبر عن ذلك في النص التالي،

"اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس [أي المجاز] على الكلام المتروك على ظاهره..ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها. تفسير هذا : أن ليس المعنى..أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد"[[7]](#footnote-8).

أي أن المعاني المجازية لا تنتج أثرها في الفصاحة والبلاغة لأجل ذاتها، وإنما بسبب أسلوب اثبات العلاقة المجازية، وهذا الأسلوب ليس إلا "نظم" الألفاظ. وكانت التفرقة بين "النظم" باعتباره علاقات بين الألفاظ وبين المجاز باعتباره علاقات بين المعاني هي السبب في تفرقة الشيخ عبد القاهر، لأول مرة في البلاغة العربية، بين علمي المعاني (النظم) والبيان (المجاز)[[8]](#footnote-9).

ولتأكيد الفصل بين المجالين كان مؤلفه "دلائل الإعجاز" متضمنا مفهومه "للنظم" ومؤلفه "أسرار البلاغة" متضمنا مفهومه "للمجاز" أو البلاغة. وقد تضمن مؤلفه "دلائل الإعجاز" قسما محدودا عن "المجاز" بغرض تقرير العلاقة بين "النظم" باعتباره المفهوم الأساسي في جودة التعبير وبين "المجاز" باعتباره مكملا له. عند ذلك يكون الشيخ عبد القاهر قد تمكن من خلال مدخله لمعالجة التناول العقلي لمفهوم "النظم" من تخليص هذا المفهوم من علاقاته سواء بالجانب الديني الإيماني أو بالجانب الخيالي المجازي. وبذلك أصبح جاهزا للمعالجة من الناحية العقلية الصرف. وذلك باعتبار "النظم" ليس سوى تعلق الكلام بعضه ببعض، وأن العلاقات بين الكلام هي علاقة قابلة للمعرفة العقلية.

أي أن "النظم"، عند الشيخ، هو بمثابة الجانب العقلي العلمي في التعبير اللغوي، يقابله الجانب الفني المتمثل في أغراض النظم والعلاقات المجازية. وذلك كما في علم "الموسيقى" مثلا، في ذلك العصر، والذي كان يعد قسما من الرياضيات. فالموسيقى هي من جانب النسب الرياضياتية "علم" ، أما من جانب الأغراض والتعبير عن الأحاسيس الإنسانية وعلاقاتها هي "فن". والإثنان معا يؤلفان الجانب العقلي (العلمي) والجانب الشعوري (الفني) للموسيقى. وكل الفنون لها قواعد "علمية" عقلية تبني عليها، ولها في نفس الوقت أساليب شعورية تعبيرية. وحرص الشيخ عبد القاهر على طرح مفهوم "عقلي" للنظم هو في الأساس مبني على تقسيم التعبير اللغوي إلى قسمين، الأول "عقلي" (النظم)، وهو موضوع كتابه "دلائل الإعجاز"، والثاني "شعوري" (المجاز)، وهو موضوع كتابه "أسرار البلاغة".

1. **الاعتماد على العقل لتأسيس علم "النظم":**

بعد أن استبعد الشيخ عبد القاهر العناصر غير العقلية المرتبطة بالقضية، متمثله في الجانب الديني في الإعجاز، وخصص له "الرسالة الشافية"، والجانب المجازي في اللغة، وخصص له "أسرار البلاغة". بعد ذلك شرع في التأسيس لمفهومه لنظم اللغة باعتباره علما عقليا بشكل تام. لذلك حرص الشيخ على تأكيد مبادئ العقلانية التي تقوم عليها أي معالجة علمية لأي موضوع في العلوم الإنسانية. وعلى أنها مبادئ عامة ينبغي الالتزام بها باعتبارها الأساس الذي تقوم عليه المعالجة المنهجية الدقيقة للعلم المحدد.

لذلك نظر الشيخ عبد القاهر إلى مفهوم النظم نظرة عالية التجريد باعتباره ليس سوى تنظيم وترتيب الكلمات حسب إرادة "الناظم" بشرط احترام قواعد النحو. ثم اعتبر أن عملية النظم ذاتها ليست سوى عملية علمية تقوم على تطبيق قواعد ثابتة مثلها مثل أي عملية فنية "تقنية" دقيقة تعتمد على العلم. فالمادة الخام هنا هي الألفاظ، المتفق على معناها عرفا، وقواعد النحو التي تحدد كيف يمكن أن تنتج مجموعة من الألفاظ معنى.

ولكن أساليب ترتيب الألفاظ مع احترام قواعد النحو عديدة، وهذه الأساليب المتعددة تعطينا القدرة على انتاج معان عديدة لا حدود لها. كما أن أي تغيير في ترتيب ونظم أي مجموعة من الألفاظ يؤدي مباشرة إلى تغيير المعنى، ولهذا السبب تتفاضل المعاني الناتجة عن النظم إلى درجة لا حد لها. ولذلك يقيم الشيخ تشابها أو تماثلا بين صياغة النظم، ومادته الخام الألفاظ وقواعد النحو، وبين صياغة الحلي، ومادته الخام الذهب والفضة، أو بينه وبين صياغة الرسم والنقش ومادته الخام الألوان والأصباغ، كما في النص التالي،

"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار"[[9]](#footnote-10).

والفصاحة في النظم يجب أن تعرف دقائقها كما يجب أن تعرف الصناعات،

"وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علما تمر فيه وتحلي، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين "[[10]](#footnote-11).

وكما أن الصياغة "صناعة" و"علم" يمكن معرفة الصواب والخطأ فيه، تكون الفصاحة "علما" يمكن معرفة الصواب والخطأ فيه،

"وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تنصب لها قياسا ما وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها في شيء، حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المتجورة في الباب المقطع "[[11]](#footnote-12).

وتأكيدا على أن النظم هو علم عقلي بشكل كامليهاجم الشيخ عبد القاهر بشدة التقليد واستقبال الآراء السابقة دون نقد أو تمحيص ويشدد على ضرورة إعمال العقل ويتهم من لا يحرص على ذلك بالكسل ونقص الهمة، وذلك في مواضع متعددة. ففي تأثير ذيوع الرأي وانتشاره دون دليل والتأثير السلبي لذلك على عموم المثقفين، يبين :

"واعلم أن القول الفاسد..إذا كان صدره عن قوم لهم نباهة..في أنواع من العلم غير العلم الذي قالوا ذلك فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته وفشا وظهر..صار ترك النظر فيه سنة والتقليد دينا، ورأيت الذين هم أهل ذلك العلم وخاصته..وجدتهم قد أعطوه مقادتهم..وأوهمهم النظر إلى منتماه ومنتسبه، ثم اشتهاره وانتشاره..وكم من خطأ ظاهر ورأي فاسد حظي بهذا السبب عند الناس حتى بوأوه أخص موقع في قلوبهم"[[12]](#footnote-13).

ثم يشكو من سيطرة التقليد على العقول فيما يخص علم الفصاحة،

"وذاك أنك ترى الناس كأنه قد قضي عليهم أن يكونوا في هذا الذي نحن بصدده على التقليد البحت، وعلى التوهم والتخيل..قد صار ذاك الدأب والديدن، واستحكم الداء الاستحكام الشديد..وذاك لأن الاعتقاد الأول قد نشب في قلوبهم وتأشب بها"[[13]](#footnote-14).

وهو يكرر هجومه على التقليد في مواضع متعددة من مؤلفه، ويرجع عدم تقبل المجتمع للفكر العلمي الصحيح إلى استحكام التقليد في العقول، حتى أنه يصف ذلك بأنه داء شديد. وهو في ذلك يعد داعية لإعمال العقل ونقد فكر السابقين مهما عظم شأنهم ومهما كانت سيطرتهم على العلوم، وهو الأمر الذي يتفق مع مفهومنا للعلم الحديث.

فالفصاحة عند الشيخ عبد القاهر علما دقيقا يمكن تتبع عناصره بدقة وليست فنا يتم تقديره إجمالا بصورة تقديرية ذاتية. فهو من ناحية يشبه معرفة "الفصاحة" بمعرفة الأعمال الصناعية ذات النظم الدقيقة مثل الخيط في النسيج وقطع النجارة في الباب وقطع الحجر (الآجر) في البناء. و"الناظم" هو بمنزلة الصانع الحاذق الذي يعرف دقائق صناعته وأساليب إجادتها وأسباب تفاضل صنعة عن صنعة. ومن ناحية ثانية يشترط، بناء على هذا التمثيل، أن يكون العلم "بالفصاحة" تفصيليا حتى "تضع اليد على خصائص النظم واحدة واحدة".

مفهوم النظم:

من خلال جمع النصوص الخاصة بشرح هذا المفهوم في عمله الأساسي "دلائل الإعجاز" يتمثل مفهوم نظرية "النظم" عند الشيخ عبد القاهر في التعريف التالي،

"النظم" هو "الصياغة اللغوية" التي يعبر بها المتكلم (المرسل) عن غرض محدد في التعبير باستخدام قواعد وأصول النحو وحسب قواعد المنطق والعقل وحسب العرف السائد في اللغة وحسب سياق الحال عند الاستخدام وعلى أن يكون للعلاقات بين الألفاظ أسباب محددة مرتبطة بالعناصر السابقة "

وهو مفهوم يرتكز على العناصر التالية:

1. المركز الدلالي في النص هو المتكلم، والمعيار لجودة التعبير هو إجادة التعبير عن غرض المتكلم بأفضل صياغة ممكنة.
2. تقدير جودة الصياغة اللغوية لا يرجع إلى الإحساس أو الشعور الفني ولكن يرجع إلى أسباب يمكن تحديدها بتتبع القوانين التي ترتكز عليها النظرية.
3. هناك إمكانية للتعقيد اللغوي غير محدودة ناتجة عن تركيب قواعد النحو مع قواعد المنطق مع أساليب العرف السائد في اللغة مع سياق الحال مع الغرض.
4. جودة الصياغة ترجع إلى العلاقات بين الألفاظ لا إلى الألفاظ في ذاتها.
5. تعبر الصياغة عن معنى محدد غير ملتبس، ويمثل عدم التحديد والالتباس في المعنى نوعا من الصياغة غير الجيدة أو النظم غير الجيد.
6. هناك خمسة أنواع أساسية من التغيير في نظم الألفاظ تدخل في صياغة "النظم" مع الالتزام بقواعد النحو: التقديم والتأخير – الحذف – علاقة الخبر بالجملة – استخدام الحال – الفصل والوصل.
7. يمثل المجاز اللغوي عنصرا إضافيا إلى جوار النظم، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: الاستعارة – الكناية – التمثيل.

وفيما يلي بيان للمقتطفات التي تعبر عن عناصر نظرية النظم:

1- النظم بصفته علاقات سببية بين الألفاظ

"معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[[14]](#footnote-15).

2- النظم بصفته علاقات نحوية

"اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها"[[15]](#footnote-16).

3-النظم بصفته معبرا عن غرض أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه

"لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها..إن قولنا "المعنى" في مثل هذا يراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه"[[16]](#footnote-17).

4- النظم بصفته علاقات بين الألفاظ

"وجملة الأمر أنا لا نوجب "الفصاحة" للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها"[[17]](#footnote-18).

5- النظم مرتبطا بسياق الحال

"وإذ قد عرفت هذه الجملة، فاعلم أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية..وقسم ثان: وهو أن يكون له مفعول مقصود معلوم، إلا أنه يحذف لدليل الحال عليه"[[18]](#footnote-19)، وأيضا"وكذلك إن قلت "رجل طويل جاءني" لم يستقم حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أتاك قصير، أو نزلته منزلة من ظن ذلك"[[19]](#footnote-20).

6- النظم مرتبطا بالعرف والعادة في اللغة

"واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني..كساها أبهة وكسبها منقبة..فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم..وإن كان ذما كان أوجع وميسمه الذع"[[20]](#footnote-21)، وكذلك، "ولكنهم يعنون أن كل من كان مثله في الحال والصفة، كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة، أن يفعل ما ذكرنا أو أن لايفعل"[[21]](#footnote-22).

7- النظم كعلاقات عقلية بين الألفاظ

"والفائدة في معرفة هذا الفرق، أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[[22]](#footnote-23).

1. النظم كعلاقات منطقية بين الألفاظ:

أ- في مفهوم الجنس النوع.

"وههنا أصل يجب أن تحكمه، وهو أن من شأن الأجناس كلها إذا وصفت، أن تتنوع بالصفة..أنواعا مختلفة يعد كل شيء منها شيئا على حده..وما شاكل ذلك انقسم الجنس منها أنساقا وصار أنواعا"[[23]](#footnote-24).

ب- في نفي القضية الجزئية.

"وإذ قد عرفت ذلك، فههنا أصل، وهو أنه من حكم النفي إذا دخل على كلام، ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه، أن يتوجه إلى ذلك التقييد وأن يقع له خصوصا"[[24]](#footnote-25).

وذلك بالإضافة لنصوص عديدة في تطبيق النظرية على الشعر العربي تعبر عن الصفة المنطقية لطبيعة النظم.

9- تميز مستويات جودة النظم بدون حدود للتمييز.

"واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت، أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا..وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره، وقانون يحيطه، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة"[[25]](#footnote-26).

تسعى نظرية النظم عند الجرجاني إلى توسيع أفق النّحو وتطويع أدواته حتى يستقرى مواطن الحسن في اللّغة شعريّةً كانت أو غير شعريّة، دون أن يقتصر في ذلك على بيان العلاقة البنيويّة بين أجزاء الجملة الواحدة، بل يمتدّ إلى دراسة العلاقة القائمة بين الجملة والجملة داخل نفس الخطاب.  
وبوسعنا تمثّل هذا المنهج بالعودة إلى دلائل الإعجاز؛ حيث ينصّ الجرجاني قائلا: " فلست بواجدٍ شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا وخطؤه إن كان خطأً إلى النّظم، ويدخلُ تحت هذا الاسم، إلاّ وهو معنىً من معاني النّحو قد أصيبَ به موضعُهُ ووضع في حقّه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستُعملَ في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلامًا قد وصف بصحّة نظمٍ أو فساده، أو وصف بمزيةٍ وفضل فيه، إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصّحة وذلك الفسادِ وتلك المزية وذلك الفضلُ إلى معاني النّحو وأحكامِهِ، ووجدته يدخل في أصلٍ من أصوله، ويتّصلُ ببابٍ من أبوابه."[[26]](#footnote-27).  
  
وينصّ أيضًا: " واعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف منهجه الّذي نهجت فلا تزيغ عنه، وتحفظ الرّسوم الّتي لك فلا تخلّ بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئًا يبتغيه النّاظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه الّتي تراها في قولك: زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ ينطلقُ، وينطلقُ زيدٌ، ومنطلقٌ زيدٌ، وزيدٌ المنطلقُ، والمنطلقُ زيدٌ، وزيدٌ هو المنطلقُ، وزيدٌ هو منطلقٌ."[[27]](#footnote-28)  
من هنا يتعيّن إذن، أنّ نظريّة النّظم تستند إلى النّحو كأساسٍ علميٍّ على أن يفهم أنّ هذا النّحو يتحرّك بين حدّينمتلازمين:  
ـ حدٌّ معياريٌّ يحكم بالصّحة والخطأ بناءً على قواعد علميّةٍ مضبوطةٍ تجد نموذجها المفضّل في اللّغة بدلالاتها الوضعيّة الّتي يتقلّص فيها العدول أو يكاد إلى درجة الصّفر مثل ( زيدٌ منطلقٌ ) و( خرج عمرو )…الخ.  
ـ حدٌّ وصفيٌّ ينطلق من الحدّ الأوّل ليتجاوزه إلى تعليل المزية الّتي تجد نموذجها المفضّل في اللّغة بدلالاتها المجازيّة المتمثّلة في ظواهر من قبيل الاستعارة، والكناية، والتّمثيل، والتّقديم والتّأخير، والفصل والوصل، إلى غير ذلك مما نجده في لغة الشّعر ولغة القرآن.  
واللّغة لدى الجرجاني ليست ألفاظًا، بل " مجموعُ الرّوابِطِ الّتي نقيمُها بين الأشياء بفضل الأدوات اللّغويّة، وتلك الرّوابطُ هي المعاني الّتي نعبّر عنها، ومن ثُمّ كانت أهميّتها وما لها من صدارةٍ على الألفاظ."[[28]](#footnote-29)  
  
وعن طريق هذا التّصوّر استطاع عبد القاهر ردم الهوّة الفاصلة بين النّحو والبلاغة بجعلهما أساسًا واحدًا لقيام الشعريّة أو ما يسمّى بـ " علم الأدب "، وبهذا ارتكز النّقد على منهج لغويّ رصين، هو " منهج النّحو الّذي لا يقف عند حدود التّحكّم بالصّحّة والفساد، بل يمتدّ في البحث عن العلاقات التي تقيمها اللّغة بين الكلمات، وإلى اجتلاء معانيها، وكشف غامضها، وبذلك اتّسع أفق النّحو وغنيت مادّته، ودخل فيه كلّ ما يراعى في النّظم من تقديمٍ وتأخيرٍ وما إليه من أسباب الجودة وعدمها، ممّا استقرّ عليه العرف فيما بعد بجعلها من علم المعاني، ومن ثم فإنّ الأساس عنده هو النّحو، على أن يشمل النّحو علم المعاني، وأن يتجاوز القواعد النّحويّة إلى الجودة الفنيَّة."[[29]](#footnote-30)

**النّحو البلاغي:**  
تنطلق فكرة النّحو عنده بذلك نحو التّذوّق والخلق الفنيّ، وتغدو بلاغةً نحويّةً أو نحوًا بلاغيًّا، بعد أن كانت قواعد منطقيّة جافّة.  
" إنّه لا يقصد بنظريّته الجديدة إلى شيئٍ من هذا، ولكنّه يقصد إلى النّحو البلاغيّ، أو البلاغة النّحويّة، وبذلك يكون أوّل عالمٍ أخرج النّحو من نطاق شكليّته وجفافه، وسما به فوق الخلافات وبعث فيه دفء اللَّذَّة الشعوريّة والعقليّة معًا، وأخضعه لفكرة النّظم وأخضع فكرة النّظم إليه، وأصبح النّظم الّذي يرتبط بالنّحو أو النّحو الذي يعود إليه النّظم مباحثَ في الأسرار البلاغيّة، والنّكاتِ الفنيَّةِ التي تدقّ في جاذبيتها وتحلّق في تصويرها حتّى تصل إلى أرفع مراقي البيان، وذلك هو الإعجاز الّذي أذاب فيه الرّجل العالم عصارة أيّامه ولياليه."[[30]](#footnote-31).  
فالجرجانيّ يرى مثلاً أنّ المجازَ من مقتضيات النّظم الّذي يقوم على توخّي معاني النّحو، فيقول: " الاستعارَةُ والكنايةُ والتّمثيل، وسائرُ ضروبِ المَجازِ من بَعدِها من مُقتَضياتِ النّظم، وعنها يحدُثُ وبها يَكون، لأنّه لا يُتَصَوّرُ أن يدخُلَ شَيٌ منها في الكلم وهي أفرادٌ لم يُتَوَخَّ فيما بينها حكمٌ من أحكامِ النّحو، فلا يُتَصَوّرُ أن يكونَ ها هُنا فعلٌ أو اسمٌ قد دخلته الاستعارةُ من دونِ أن يكونَ قد ألّف مع غيرهِ. أفلا ترى أنّهُ إن قُدّر في ( اشتعل ) من قوله تعالى { فاشتعلَ الرّأس شيبا }، أن لا يكونَ ( الرّأسُ ) فاعلاً لهُ ويكونُ ( شيبًا ) منصوبًا عنهُ على التّمييز، لم يتصوّر أن يكون مستعارًا. وهكذا السّبيلُ في نظائر الاستعارَةِ، فاعرف ذلك."[[31]](#footnote-32).

1. - الجرجانيّ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، المنار، ط6، ص 36. [↑](#footnote-ref-2)
2. - د. الصّاوي، أحمد عبد السّيّد: النّقد التّحليلي عند عبد القاهر الجرجانيّ، ص 163. [↑](#footnote-ref-3)
3. - الجرجانيّ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، المنار، ط6، ص 261 – 262. [↑](#footnote-ref-4)
4. - الجرجانيّ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، المنار، ط6، ص ص20، 21 . [↑](#footnote-ref-5)
5. دلائل الإعجاز صـ 81. [↑](#footnote-ref-6)
6. السابق صـ 55. [↑](#footnote-ref-7)
7. السابق صـ71. [↑](#footnote-ref-8)
8. قارن ذلك برأي د. نصر حامد أبوزيد "وهكذا حمل عبد القاهر ذلك التعارض بين "النظم" و "المجاز" بحيث جعل مفهوم "النظم" يستوعب في داخله "المجاز" ، ولكنه ظل – حصرا لهوة الخلاف بينه وبين أسلافه- يعترف بنوع ما من الحسن المستقل للمجاز بأنماطه المختلفة" اشكاليات القراءة وآليات التأويل صـ177 ويقول في بيان وجهة نظر عبد القاهر في الفرق بين "النظم" و"المجاز"، "إننا نجده [أي عبد القاهر] يناقش قضايا المجاز من زاوية الدلالة، على أساس التفرقة بين نوعين من الدلالة، يرتبط كل منهما بنوع من الكلام. فثم نوع من الكلام نصل إلى دلالته من خلال علاقات التفاعل بين الألفاظ ومعاني النحو فقط، وثم نوع آخر نصل إلى دلالته بطريقة أكثر تعقيدا وتركيبا" اشكاليات القراءة صـ180. [↑](#footnote-ref-9)
9. دلائل الإعجاز صـ254، وهذا التشبيه موجود في الأدبيات قبل الشيخ عبد القاهر ولكنه استخدمه لأنه يتفق مع قضيته. [↑](#footnote-ref-10)
10. السابق صـ37، وهنا يظهر أن الشيخ لا يكتفي بالتشبيه بين النظم والصناعات الدقيقة وإنما يطلب العلم الدقيق بالنظم مثلما يكون العلم بالصناعات الدقيقة ضروريا. [↑](#footnote-ref-11)
11. السابق نفس الصفحة، وهذا التشبيه موجود أيضا عند من تكلموا في النظم قبل الشيخ، ولكنه يشدد هنا على المعرفة العقلية الدقيقة بالموضوع وليس على المعرفة الشعورية الذاتية به كما يرى من سبقوه. [↑](#footnote-ref-12)
12. دلائل الإعجاز صـ464-465، وفي هذا النص يقصد الشيخ علماء الكلام الذين برعوا في هذا العلم ولكنهم تكلموا أيضا في النظم، وهم في نظره غير متخصصين في اللغة "لهم نباهة في العلم غير العلم الذي قالوا ذلك فيه"، مثل القاضي عبد الجبار من المعتزلة أو الباقلاني من الأشاعرة الذي تناولوا النظم بشكل شعوري ذاتي غير عقلي، من وجهة نظره. [↑](#footnote-ref-13)
13. السابق صـ365، و"الاعتقاد الأول" هنا، كما يرى الشيخ، هو الاعتقاد بأولوية اللفظ على المعنى كما طرحه علماء الكلام. [↑](#footnote-ref-14)
14. المدخل إلى "دلائل الإعجاز"، صـ4. [↑](#footnote-ref-15)
15. السابق صـ81. [↑](#footnote-ref-16)
16. السابق صـ258. [↑](#footnote-ref-17)
17. السابق صـ402. [↑](#footnote-ref-18)
18. السابق صـ154-155. [↑](#footnote-ref-19)
19. السابق صـ143. [↑](#footnote-ref-20)
20. أسرار البلاغة صـ115. [↑](#footnote-ref-21)
21. دلائل الإعجاز صـ139. [↑](#footnote-ref-22)
22. السابق صـ49-50. [↑](#footnote-ref-23)
23. السابق صـ192. [↑](#footnote-ref-24)
24. السابق صـ279. [↑](#footnote-ref-25)
25. السابق صـ93. [↑](#footnote-ref-26)
26. - أنظر: د. بعلبد، صالح: نظريّة النّظم، الفصل المعنون بـ " نظريّة النّظم عند القدماء " ( ص 92 – 182 ). [↑](#footnote-ref-27)
27. - الجرجانيّ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، المنار، ط6، ص67. [↑](#footnote-ref-28)
28. - الجرجانيّ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، المنار، ص67.  
     [↑](#footnote-ref-29)
29. - د. مندور، محمّد: النّقد المنهجيّ عند العرب، ص 335 [↑](#footnote-ref-30)
30. - [↑](#footnote-ref-31)
31. - الجرجانيّ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، المنار، ط6، ص 255. [↑](#footnote-ref-32)